

الترجمة للأطفال بين ثقافة الأنا والآخر

عيسى بريهمات

جامعة تليجي عمار ، الأغواط - الجزائر -

brihmat.aissa@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2017/06/30

تاريخ المراجعة: 2017/05/11

تاريخ الإرسال: 2017/01/18

ملخص:

عندما نسعى إلى إنجاز عمل ترجمي للأطفال ينبغي لنا أن نتسلح بأقصى درجات الحيطة والحذر، لأن الترجمة للأطفال مهما بدت بسيطة فهي أعقد الترجمات وأرهفها فهي تحتاج منا نخل وغرلة ما لدينا من معطيات حول واقع الطفل وثقافته عالميا ومحليا مع رصد مفهوم الطفولة وتحثيته بكل مستجداته.

يعد موضوع الترجمة للطفل من أهم وأخطر النشاطات في حياة الأمم والدول، وذلك لأن الطفولة الصالحة والمعدة الإعداد الهادف والمخطط، هي الاستثمار الثقافي المثالي لغد أفضل. إن الترجمة أو الكتابة للطفل - بوصفها استراتيجية تنموية - لا ينبغي أن تترك للصدف دون مراقبة صارمة ودون تقويم وتوجيه، فلا يعهد بها لمن هب ودب ولمن لا يرعاها في نطاق بيئتها وثقافتها المحلية من مثل الترجمة العرضية أو الترجمة العفوية أو المُستهدفة الواردة علينا من ثقافات أجنبية غريبة عنا والتي تلفظ أحيانا سموما تفتك بالناشئة نراها من يوم لآخر تزداد حجما وضغطا عبر الوسائط الإلكترونية حتى كادت تهمش دور المؤسسات المنوط بها تربية الطفل والترجمة له في نطاق احترام خصائصه وثقافته.

إن الترجمة العفوية أو الهادفة عبر الوسائط السمعية البصرية التجارية والأجنبية تبدو أحيانا كفضاء عازل يحول دون تفاعل الطفل مع محيطه وظروفه الواقعية البانية لهويته الحقيقية. في هذا السياق لسنا ضد التباين الثقافي أو اللغوي ولكن على الأقل نحول دون السيل الثقافي الجارف الذي تمارسه الأمم القوية على الأمم الضعيفة بواسطة الترجمة الأدبية بل حتى العلمية التي بات وسيلة لتغريب الطفل العربي عن واقعه ومجتمعه وأمته فيتحول إلى معول هدم لهويته ونصيرا للهوية الأجنبية الهوية الممارس للاختراق الثقافي عبر الترجمة بكل أشكالها ومعداتها التكنولوجية.

والمترجم العربي عندما يهتم بإنتاج كتاب أو عمل فني للطفل؛ فهو يخاطب حاجات الطفل اللغوية والوجدانية والخيالية...، ولكن إلى أي مدى كان نجاح ترجماتنا العربية؟ وهل خاطبت حاجات وطموحات الطفل فعلاً؟ هل حرصت خياله وكرست الحوار معه ونمت حريته وابداعيته؟ لماذا تهيمن الترجمة الغربية وتشد اهتمام أطفالنا؟ ما السبيل إلى ترجمات عربية تكون في المستوى المطلوب تكرر قيما إنسانية وتبث روح الطفولة الحقيقية التي تقوي وتدعم إحساس الطفل بالخلق والنظام والقانون؟ هذا ما ستجيب عنه ورقتنا البحثية هذه.

كلمات مفتاحية: ترجمة؛ أطفال؛ ثقافة؛ الأنا والآخر؛ تقنيات؛ آليات؛ ذاكرة؛ هوية.

مقدمة:

ما تزال الترجمة الموجهة إلى أطفالنا تفتقر إلى الاختصاص فتتجز على هامش الأدب والتربية، لا تخضع لطبيعة الطفل، بل تخاطبه كأنه راشد ودونما اهتمام بخلفيته اللغوية والثقافية التي تفرض قيودها على التواصل. ويبدو سياقها مجافيا للسياق التربوي الذي يتميز بمعطيات نفسية واجتماعية خاصة. هذا المنحى الترجمي يتأسس في واقع الأمر على المعايير والاعتبارات التربوية كالنمو العصبي والنفسي وطبيعة لغة الأطفال وخيالهم وسلوكهم وإدراكهم المميز. أما نسقيا فتختلف ترجمة قصة الأطفال عن القصة الموجهة إلى الكبار. وتتجلى مظاهر الاختلاف في المستويات التركيبية والصرفية والمعجمية وهي مظاهر تنعكس بشكل أو بآخر على الشروط التقنية وخصائص الجنس الأدبي وطبيعة الوسيط الثقافي أو طبيعة الاتصال الإعلامي.

الترجمة الأدبية-التربوية الموجهة إلى الطفل، تعد من الأنشطة التي تصل بين أدبين فأكثر، وتؤسس جسرا بين ثقافتين ولغتين مختلفتين. وتسهم في توصيل بعض روائع الأدب الإنساني-العالمي إلى قطاع من القراء الصغار ما كانت لتصل إليهم بدونها. الترجمة إدراك ولا تقتصر على اللغة وحدها ولا تختصر في مجرد استبدال دوال وطنية بدوال

أجنبية. إنها حالة من التفاعل الثقافي يتمثل في نقل النص الأصلي إلى فضاء ثقافة التلقي.

يقوم المترجم، في عملية الترجمة، بمد الجسور الثقافية التواصلية، فهو يمكن أن يقرب الثقافات كما يمكن أن يعمق الهوية بينها. وفي مقدوره أن يسبق مدلولاً محلياً على النص الأجنبي كما في استطاعته أن يدمج النص المحلي بمدلول أجنبي. غير أنه لا يستطيع أن يخلص لغته من تباينات (الأنا والآخر) دون عقبات ويستطيع ذلك بمهارة التفاوض التي يعقدها بين اللغتين والثقافتين. هذه المكابدة التي يعانها المترجم لا تذهب جُفاء بل تُحوّل النص المترجم إلى "رأس مال ثقافي" حيوي يعزز ويوسع القاسم المشترك من العلاقات بين أطفال العالم بل بين الشعوب والثقافات.

الترجمة تدمج ثقافة (الأنا والآخر) في دائرة القيم الإنسانية والعالمية. فلا أحد يستطيع اليوم أن يستغني عن خدماتها المختلفة اللسانية والثقافية... ورب أمة لا تُعرف عند الآخر بكيانها المادي بل تُعرف من خلال رأسمالها الثقافي. فالغرب تعرف علينا مثلاً من خلال ثقافة ألف ليلة وليلة وظل أطفاله وكباره يعتكفون على قراءتها طوال أربعة قرون من خلال ترجمتها إلى لغاتهم الأوروبية حتى تحولت إلى أصل جديد مفارق لأصلها العربي. أخصبت أدب الطفل الأوروبي والعالمي تقاطعت وتناصت مع كل أشكال التعبير الغربي.

أما أطفالنا فتعرفوا على (الآخر) من خلال حكايات ذات نفس عالمي¹. رومانيا وواقعا سحرتهم ترجمة "البؤساء" فهي رواية تأثر بها كل أطفال العالم. إن ترجمتها إلى مختلف اللغات هي التي سمحت لها بعبور الثقافات. أثرت على معظم أدباء العالم دوستويفسكي، تولستوي، المنفلوطي... فهي من الكتابات العالمية التي خاطبت الضمير والوجدان، كرسّت المحبة والسلام، واجهت الظلم والاستبداد فعكف عليها الكبار والصغار.

من واقع الترجمة إلى العربية نلاحظ بصفة عامة أن النصوص العالمية-الفرنسية والإنجليزية- كان لها النصيب الأوفر في الترجمة للصغار واليافعين. ومن الأجناس المكرسة لهم تأتي الحكاية ثم الرواية على رأس القائمة ويأتي الشعر ربما لصعوبته في ذيل القائمة. أما ممارسو هذه الأجناس الأدبية الطفلية فليس لهم تكوين خاص في الترجمة وإنما هم من رجال التربية والتعليم.

تطرح ترجمة الرواية للأطفال والمراهقين إشكالية الفروق الثقافية والنكهات اللهجوية الفردية. كما أن تعريب الأسماء والأمكنة والفضاءات يشكل ندوبا تشوه الأصل وتجتث منه نكهته وألوانه وثقافته ورواه الدينية وطبوعه العرقية. وتصل التشوهات إلى حد العبث بعبقرية لغته، وتعابيره المألوفة، وقوالبه الأثيلة. هذه الظواهر تتجلى أيضا معكوسة حيث إنها تفعل المفعول نفسه في نص التلقي أو المصب الذي يجده الطفل مجافيا لأعراف ثقافته ولغته ومجتمعه.

نذكر في هذا السياق ترجمات سمعية بصرية لـ Heidi هايدي Sandy belle، ساندي بال Saly سالي Barby باربي. ترد معظم هذه الأعمال محملة بعاطفة أو مسحة دينية مسيحية أو رومنسية يصعب على المترجم استبدالها بأخرى توافق أنا الطفل المتلقي وإذا اجتثها من النص يفقد مذاقه. تظهر التشوهات أيضا على أسماء الشخصيات والأماكن وتنتاب المترجم الحيرة أمامها أتركها على عواهنها أم يستبدلها أم يبقيها كما هي اجنبية؟ فلا يصل الطفل إلى معناها أم يبقيها كما هي ويشرحها على الهامش؟ مثل شخصيات رواية "البؤساء": Fantine, Gavroche, Fauchelevant, Madelaine, Jean Valjean, Cosette, Javert عندما توظف كما هي في أصل اللغة الفرنسية تصيب حصيلة الترجمة بافتقار يقضي على نزعتها البيئية *écologisme* لأن هذه الأسماء بما فيه أسماء الأماكن (Montreuil, Montfermeil) لها دلالات لا تظهر في اللغة المحلية إلا بالشرح على الهامش.

بعد هذا التقديم، سأحاول تقديم بعض الأفكار والملاحظات حول الترجمة من الفرنسية إلى العربية في عدد من الأنواع والأشكال الأدبية التي يحتضنها الكتاب الورقي والرقمي وتحتضنها الشاشة السمعية البصرية والعديد من الوسائط ويدمن عليها الأطفال بشراهة.

عندما نسعى إلى إنجاز عمل ترجمي للأطفال ينبغي لنا أن نتسلح بأقصى درجات الحيطة والحذر وعلينا الابتعاد عن التهورين من شأن الترجمة أو الأدب الموجه إلى الأطفال وكأن ترجمة أدب الطفولة تمثل طفولة الترجمة، الترجمة العفوية البسيطة. إن الترجمة التي تستهدف الأطفال مهما بدت بسيطة، فهي أعقد الترجمات وأرهفها. تحتاج منا إلى نخل وغربل ما لدينا من معطيات حول واقع الطفل وثقافته، وما يقرأ محليا وعالميا. لأن كل ثقافة تتحدد بخصائصها وبالعلاقات التي تقيمها مع الثقافات الأخرى. إن التداخل أو التناص الثقافي مكون أساسي في الثقافة. ومن جهة أخرى علينا كذلك، رصد مفهوم الطفولة ومراجعته وتحينه إذا كنا بالفعل نسعى إلى تنمية بشرية وكنا نريد لأطفالنا ولأمتنا نماء اجتماعيا وثقافيا طموحا.

وأيا كانت الترجمة أو الكتابة الموجهة إلى الأطفال فهي تنجز، في واقع الأمر، من قبل الكبار وترسخ هيمنة من صنع وتوجيه الكبار. ومن هنا، وحتى يستطيع المترجم التواصل مع الأطفال عليه أن يعرف "ماذا يوجد في الكبار من طفولة، وماذا يوجد في الطفل مما عند الكبير، حتى يتقبل ما يقدم إليه من الكبار"² وعليه، أيضا، معرفة ما إذا كان الكبار على حق دائما ولا ينطلقون من أحكام مسبقة يمارسونها عنوة على الطفل. وفي هذا المضمار على المترجمين ومؤسسات الترجمة الانتباه إلى المفاهيم والأسس التعليمية "الصادرة عن الكبار والتي "تترصد" الصغار باعتبارهم خطابا جاهزا مباحا وخلوا، ومفتوحا للوصاية الغازية"³.

يعتبر موضوع الترجمة للطفل من أهم وأخطر النشاطات في حياة الأمم والدول. وذلك لأن الطفولة الصالحة والمعدة لإعداد الهادف

المخطط، هي الاستثمار الثقافي المثالي لغد أفضل. إن الترجمة أو الكتابة للطفل - بوصفها استراتيجية تنموية - لا ينبغي أن تكون جرافية متروكة للصدف دون مراقبة صارمة ودون تقويم وتوجيه. فلا يعهد بها لمن هب ودب، ولمن لا يرهاها في إطار العلوم النفسية والتربوية وفي نطاق بيئتها وثقافتها المحلية، من مثل الترجمة العرضية أو الترجمة العفوية أو المستهدفة الواردة علينا من ثقافات أجنبية غريبة عنا تجارية النزعة.

تعتبر الترجمة أداة ثقافية تتبادل بواسطتها الحضارات مختلف التأثيرات، وتتجاذب عن طريقها الأفكار والعلوم والعادات والتقاليد، فهي من أنجع أدوات التواصل والسلام في العالم تلطف الأجواء بين الشعوب والثقافات. وفي هذا السياق اعتبرها الباحث الفرنسي "ميشال دوكنستر" "مجموع التفاعلات التي تحدث نتيجة شكل من أشكال الاتصال بين الثقافات المختلفة، كالتأثير والتأثر والاستيراد والحوار والرفض والتمثل وغير ذلك، مما يؤدي إلى ظهور عناصر جديدة في طريقة التفكير وأسلوب معالجة القضايا وتحليل الإشكاليات، مما يعني أن التركيبية الثقافية والمفاهيمية لا يمكن أن تبقى أو تعود بحال من الأحوال إلى ما كانت عليه قبل هذه العملية"⁴ خاصة الطفولة وما تمثل من حساسية وهشاشة ثقافية سهلة الاختراق بواسطة الترجمة الموظفة للمثاقفة، الموظفة عبر وسائط القراءة من كتب رقمية ونصوص ورقية مكتوبة.

من أولى الصعوبات التي تواجه الترجمة المحلية من وإلى اللغة العربية. تبدلت كثيرا وسائط الاتصال، وتنوعت مخاطبة الأطفال سمعيا- بصريا وكتابيا وازدادت تشابكا وتعقيدا، وتراجع الدور التقليدي للأسرة والمدرسة والمؤسسات التربوية وحلت محلها وسائل الاتصال الحديثة والتقنيات المتطورة في نقل ترجمة الأدب إلى الأطفال. أجمع مترجمو أدب الأطفال في العالم على خطورة وضع الاطفال في عالمنا الراهن. أبدوا قلقهم المتزايد حيال المصائر التربوية والتنموية لأدب الأطفال. توالى اعترافهم في أكثر من مكان داعية إلى الدفاع عن الأطفال ضد الترجمات الرديئة وعلى وجه الخصوص ما ينشر عبر وسائل الاتصال الجماهيرية.

والمترجم العربي عندما يهتم بترجمة نص أجنبي أو إنتاج كتاب مترجم أو عمل فني للطفل، فهو يخاطب حاجات الطفل اللغوية والوجدانية والخيالية... ولكن ماهي المعايير التي تعتمد في جلب النص الأجنبي إلى ساحة ترجمتنا؟ إلى أي مدى كان نجاح ترجمتنا العربية؟ هل خاطبت حاجات وطموحات الطفل؟ هل حرصت خياله، وكرست الحوار معه، ونمت هويته وحرية وإبداعه؟ لماذا تهيمن الترجمة الغربية وتشد اهتمام أطفالنا؟ من يترجم وبأي أدوات أو تأهيل؟ ما السبيل إلى ترجمات عربية تكون في المستوى المطلوب تجيب عن أسئلة واستفسارات الطفل، تكرر قيما إنسانية وتبث روح الطفولة الحقيقية التي تقوي وتدعم إحساس الطفل بالخلق والنظام والقانون؟ هذه الأسئلة العديدة لا تنتع المداخلة لها فسنجيب عن بعضها.

الترجمة الموجهة إلى الأطفال:

إن حقل ترجمة الطفل - بما يتضمنه من قصص وأشعار ومجلات وكتب ومسرح وموسيقى وأفلام كرتونية وإشهارات وبرامج تلفزيونية وإذاعية وصور متعددة اللغات والشفرات - مجال واسع يحتاج إلى تضافر وتكامل اختصاصات عديدة ترافق المترجم بل أكثر من هذا المؤسسة المنوط بها فعل الترجمة التي تمتلك القدرات فتستطيع تلبية معطيات وشروط الطفولة⁵ العديدة والمتنوعة المشارب. ومثل هذه الترجمة تخضع في واقع الأمر إلى أهداف نبيلة تشجع على الإبداع وتنمية القدرات الخلاقة تدعم التنوع الثقافي، والحوار بين الثقافات بوصفهما مفتاحين لتكريس السلام بين الشعوب.

يلاحظ أن ترجمة أدب الأطفال تطورت ولم تعد مقصورة أو مختصرة في الكتاب الورقي التقليدي. والكتاب نفسه، بوصفه المصدر الرئيسي لثقافة الأطفال وأهم وسيط من وسائلها، تراجع كثيرا أمام وسائل الاتصال الثقيلة المهيمنة على عمليات تشكيل ثقافة وعقول الصغار والكبار. تغيير وتحول الكتاب شكلا ومضمونا ولم يعد كما كان بل أصبح رقميا إلكترونيا يحمل تحديات ثقافية ولغوية وإبداعية بوسائط تكنولوجية متطورة نجهل تأثيراتها على عقل ووجدان الطفل.

ونلاحظ أن التعدد في أشكال ووسائط "الثقاف Acculturation⁶ التي تستغلها الترجمة يتلازم أيضا مع تعدد بواعث الترجمة وأهدافها. ولما كانت الترجمة إجمالا فعلا سياسيا بالمعنى العام كما تؤكد "منى بكر" لم يعد بالإمكان النظر إليها بوصفها فعلا لغويا تواصليا محايدا يؤدي فيه المترجم دور الوسيط غير المنحاز. فالواقع اليومي يفي ذلك، حيث تتحول الترجمة فيه إلى أداة يستثمر فيها أفراد ومؤسسات وجماعات ضغوط متعددة بغرض تحقيق أهداف سياسية معينة، أو تغليب وجهة نظر أو طرح فكري ما على آخر.⁷

وتأسيسا على ما سلف يرى "جدعون توري" أن خيارات المترجم هي دائما مشروطة بمعايير الترجمة السائدة، ومن ثم تتشكل بفعل هذه المعايير. فقد رأى الدارسون الذين تبنا المنحى الثقافي في دراسة الترجمة أن الفاعلية الثقافية والسياسية للمترجم تمكنه من الاشتباك مع معايير الترجمة، ومناوشتها. والمترجم هنا، وفقا لتصور أصحاب المنحى الثقافي في دراسات الترجمة، لا يتحدى فقط معايير الترجمة واللغة، وإنما يتحدى أيضا التوجهات السياسية والاجتماعية والثقافية التي تضمها هذه المعايير. ومن هنا ركزت دراسات الترجمة ذات المنحى الثقافي على الفاعلية الفردية للمترجم، وذلك من خلال إلقاء الضوء على الاختيارات السياسية التي يتبناها المترجم الفرد وأشكال وديناميات توظيفه لهذه الاختيارات في عملية الترجمة.⁸ وهو ما يعني أن الظاهرة تفقد وجودها الموضوعي أثناء البحث وتصبح رهنا لتصورات الباحث وأدواته وتتلون برواه واختياراته البحثية.⁹

ومن جهة أخرى تشير المعطيات الحالية أن الترجمة أصبحت هي لغة أوروبا وأن سلطة العولمة اكتسحت العالم وبات الوضع يتجه نحو ثقافة القطب الواحد ولغته، ثقافة الهيمنة والاختراق، ثقافة الآخر الغربي الذي بدأت أسهمه ترتفع على حساب أسهم اللغات والثقافات الأخرى، ومن ضمنها الثقافة الإسلامية.¹⁰ وفي ظل هذه السلطة لم تعد الترجمة تمارس المثاقفة والتعايش، ولا تمارس التعريف بالثقافات المتنوعة والمتعددة، بل صارت تقتصر فقط على تعميم ثقافة القطب

الواحد ولغته "الأمر الذي جعل الرئيس الفرنسي شيراك" يدعو لدى افتتاح منتدى تحديات العولمة في مارس 2001 للتصدي لهيمنة اللغة الإنجليزية¹¹مثلا.

كيف نترجم للطفل: تقنيات وآليات الترجمة الطفلية

إن الترجمة التي يوججها الكبار إلى الصغار وإن بدت تتميز بخصوصيات الأطفال وطبيعتهم فهي لا تختلف في أسسها ونظرياتها إلا قليلا عن ترجمة الراشدين. تتمظهر الترجمة والكتابة الموجهة إلى الأطفال بوصفهما وريثي الممارسة الشفوية التقليدية. ويستدعي السؤال كيف نكتب للطفل؟ توأمه كيف نترجم للطفل واليافع؟ وقبل الإجابة عن هذه الأسئلة علينا الإلمام بطبيعة هذا المتلقي الصغير وذلك لربط وضبط السياق الأدبي-الترجمي على السياق التربوي. ومن المعطيات المساعدة على إنجاز ترجمة مجدية ومفيدة للطفل هي معرفة هذا المتلقي الصغير: سنه وقدراته العقلية ولغته ومطالعاته وأعرافه الشفوية والقرائية والجنس الأدبي الذي تعود عليه ووسطه الثقافي وكل هذه المعطيات وغيرها تساهم في إعداد الترجمة المفيدة والمقبولة من قبل الطفل.

هذه المعطيات تساعدنا على تجاوز العقبات والمعتقدات الخاطئة التي تعتقد "أن الترجمة انطلاقا من البسيط هي أصعب من الترجمة من المركب المعقد وهنا يتعلق الأمر بسهولة مخادعة"¹² بل مغررة. ويشرح "دوقلاس" هذا الاعتقاد المخادع قائلا: "يبدو أن كتابة الأطفال تقتضي سيولة ووضوح القراءة في لغة التوصيل أو الهدف وإن كانت عقبات كل ترجمة تفضي، في واقع الأمر، إلى التضخم"¹³ أما R.M Vassalo فيرى ويعتقد أن "ترجمة ما هو بسيط تلتهم الوقت أكثر من ترجمة المركب"¹⁴ ويدقق أيضا فيقول "كلما كان الملفوظ بسيطا كلما احتوى معاني متراكبة أكثر والتي تقتضي من المترجم أن يخفيها بدوره بملفوظ بسيط وليس ملفوظا بجانب ملفوظ يشرح النص"¹⁵.

وفي هذا السياق إن الترجمة الموجهة إلى الأطفال لا تعني على الإطلاق "ترجمة مختصرة" (Traduction en raccourci) هذا

المنظور التبسيطي محض وهم، فوراء مثل هذه البساطة فروق ثقافية، ونكهات لهجية وأحيانا مصطلحات متخصصة. جهل اللغة والثقافات الأجنبية التي تختلف عنا يساهم في تعزيز عقبات الترجمة التي تستهدف الصغار. وأهم عقبة تجابه المترجم، ما السبيل إلى إيقاع أو نبرة تدعو وتحث صغار القراء على الاستغراق في القراءة ومواصلتها حتى النهاية؟

وفي إطار الترجمة الثقافية نرى أن ثقافة الطفل ثقافة خاصة مغايرة لثقافة الكبار وإن شراكتها في بعض الجوانب والملاحم، على أن المجتمع العربي والجزائري على الخصوص- في بدايات اهتمامه بأدب الاطفال- لم يكن يملك قدرا كبيرا من النصوص الصالحة للطفل¹⁶ فاستعان بالترجمة. ومن ثم كانت ندرة النصوص العربية مسوغا للترجمة للطفل العربي. ولما نما التأليف أضيف مسوغ آخر هو الانفتاح المعرفي على آداب العالم وعلومه وفنونه وعدم التوقع على الذات الثقافية العربية. وما زال مفهوم الانفتاح المعرفي- نظريا على الأقل- سائدا في المجتمع العربي، ومسوغا رئيسا للترجمة للطفل العربي، وهذا أمر مشروع، لأن الأمم بدأت تقاس بما تقدمه لأطفالها من غذاء ثقافي، وبمقدار مراعاتها حقوق هؤلاء الأطفال.

في هذا المضمار لا ننسى أن أدب أطفالنا تأسس عفويا على مشافهة الجدات والأجداد. أما الاهتمام المؤسسي بأدب الأطفال في الوطن العربي وفي الجزائر التي عانت من "كولونيالية" بغیضة فقد دخل الحياة الثقافية من باب التبعية الثقافية والإعلامية، حين طرح أدب الأطفال بقوة من مراكز التبعية الغربية، وحين لاحظت النخب الثقافية والسياسية والتربوية العربية أن الغرب يعنى بمخاطبة الأطفال والناشئة العرب، وشرع ينتج لهم الترجمات الهجينة وأدب الأطفال عموما، وينقله إليهم بلغات أجنبية وهجينة وبوسائط ثقافية متعددة، وعبر وسائل الاتصال بجماهير الأطفال التي تنوعت وزاد تأثيرها بما لم تستطع وسائل القياس أن تحيط به في ظل تردي البحث العربي في الأدب الطفلي.

وهكذا، برز الاهتمام العربي بأدب الأطفال من خلال أمرين أولهما: توجيه أدب الأطفال ضمن أهداف محددة لم يتفق حتى الآن على توصيفها، وثانيهما: مواجهة مخاطر هذه الكتابة التي تستهدف الأطفال والناشئة. غير أن الغلبة والتأثير الأوسع ما يزال وفقا على مراكز التبعية التي تنتج أدب الأطفال بمواصفات أفضل وتنوع أوضح، وسعر أقل، يتيح لهذه المنتجات الرواج والانتشار أكثر من المواد الأدبية والعربية النادرة والقليلة نوعا وكما.

الترجمة وثقافة الذاكرة:

إن القصص التي سمعها الأطفال أو يقرؤونها في حضان أسرهم ومدارسهم وبيئتهم الوطنية تجعلهم يقطعون الوجود وفقا لطبيعة لغتهم وثقافتهم.¹⁷ إن اللغات تختلف في تمثل نفس الحقائق: فلكل لغة طريقته الخاصة في تصوير أو تمثيل الواقع. أما طبيعة النص في أي لغة فتخضع لعوامل دينية وثقافية وبيئية واجتماعية، تسهم في إنتاجه وتطبعه ملامحها التي تنعدم في نظيراتها، لهذا كانت النسبية في فعل الترجمة ونقل نص من لغة إلى لغة أخرى. الترجمة حتمية فرضتها طبيعة تعدد اللغات وتنوعها، فولا هذه الكثرة والاختلاف لكان الناس أمة واحدة قال تعالى: ﴿يَوْمَ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الروم/22).

يلاحظ أن كتب الأطفال المؤلفة والمترجمة عموما تعني بتنمية ثقافة الذاكرة على حساب ثقافة الإبداع وجعلت الطفل أليا مبرمجا مستهلكا للمعرفة حافظا لها. وأهملت جوانب أخرى تتناغم وطبيعة القرن الحادي والعشرين التي من أهمها إثارة التفكير بوضع المادة الأدبية المؤلفة أو المترجمة على شكل مشكلات تتحدى عقل الطفل فتحفزه وتدفعه إلى الاستقراء والاستنباط والاستنتاج والتركيب... موظفا كل طاقاته العقلية. وفي هذا السياق، إذا تأملنا الترجمات الحالية نجد أن المعايير التي تحكمها في العالم العربي قد تغيرت قياسا بالمعايير التي كانت سائدة في النصف الثاني من القرن العشرين وهذا بفعل العولمة

الانتميطية والانفتاح. على العموم بدت الترجمة للكبار وللصغار محكومة بجدلوية الأنا والآخر. لقد احتقت بالمفاهيم الثقافية المعاصرة واتسمت بالتبادل الثقافي والمثاقفة، والغزو الثقافي والاستلاب والانفتاح على الآخر كما ونوعا أو الانغلاق على الذات.

تتطلب الإحالات الثقافية من المترجم أن يكتف كتاباتها وفق الأعراف والمعارف المفترضة لدى القارئ الصغير دون تجريح المعايير الدينية والاجتماعية التي تشكل تحديا كبيرا للمترجم الذي يقوم بترجمة نصوص ذات مناخات وأذواق وصبغات دينية منافية لتقاليدنا الإسلامية ويصعب اجتثاثها من النص الأصلي إلا بخيائته والتفاف حوله.

في هذا السياق واستنادا لما سلف يتلخص دور المترجم في عملية الترويم أو المفاوضة المرنة مابين نص الانطلاق ونص الوصول يجب عليه أم يقوم بتوصيل مواد وأنظمة ومناهج وصيغ ومعجم وتراكيب مفيدة ومجدية للمتلقي الصغير. إن المترجم في مواقف كثيرا لا يملك إلا أن يفاوض في عناصر الترجمة على سبيل المثال:

جاء العنوان في الفرنسية *La cigale et la fourmi* الثقافة العربية لا ترتاح لهذا الترتيب وفضلت ترجمة العنوان كما يلي: "النملة والصرصور" وتعليل هذا الترتيب في ثقافة الأنا أن النملة في الثقافة العربية الإسلامية أمة لها نظامها ذكرت في القرآن الكريم ولا يجوز أن نقدم عليها الصرصور الذي ليس نموذجا يقتدى به سلوكيا، فهو كسول وليس نشيطا وأخلاقنا تمجه.

يفاض من أجل استبدال شخصية بأخرى: بعض الشخصيات القصصية قدرة تكرهها ثقافتنا بسبب تحريمها متاعا مأكلا ومشربا وتجارة. ثقافتنا العربية الإسلامية تستكف وتتأذى من ترجمة هذه الجملة الواردة في قصة "الخنازير الصغيرة الثلاثة". تقتضي الأنا ترجمة هذه الجملة باستبدال الشخصية بأخرى تقبلها ثقافتنا *j'aime notre cochon* "أحب خروفنا فهو جميل وأكثر لطفا" *il est beau et si doux*

يفاوض لاستبدال عناصر بعناصر ملائمة لثقافة الهدف فلا تكون غريبة بل مقبولة ومفيدة. يستبدل الرموز والأبطال والفضاءات وسيمياء الأشياء بأخرى مخالفة لثقافة نص الانطلاق. فالمترجم يمارس في واقع الأمر عمليات كثيرة تتراوح بين الالتزام والتكيف والتحييد والتخيير والتحويل والكشف والاستبدال والانتقاء والتطبيع... إلى جانب هذا يمكن أن يكون المترجم عفواً أو قصداً أداة فصل أو توفيق أو تحريف وقد يعمل حتى على إقصاء النص الأصلي. إن الانفتاح الترجمي المثري للثقافة والتبدل لا يجب أن يفضي إلى انطواء هوية الأطفال، انطواء يقهر شخصية الأطفال ويورثهم العديد من العقد ويحول دون نماء سيكولوجي سليم. وبهذه النتيجة يكون المترجم قد هدم ماهية الترجمة لا الترجمة في حد ذاتها.¹⁸

هناك قوى وميولات ونزعات عرقية كثيرة تتقاطع عند المترجم ونص الانطلاق ونص الوصول، تعمل على تشويه وتحريف حصيلة الترجمة، وتمنعها من الوصول إلى الأهداف المرسومة، ومن ضمنها الظواهر التالية والتي نكتفي بذكرها فحسب. منها عقلنة النص وتجريده من الأحاسيس وبالتالي لا يقبل عليه الأطفال بل ينفرون من جفافه لأن الحواس محرك الأطفال الأساسي. إغراق النص بالتوضيحات التي تضخمه وتطوله فيمجه ويبتعد عنه المتلقي الصغير. أما اختصار النص وتقليص حجم نسيجه عن طريق توظيف أيقونات ومثل مضبوطة فيعسر على الطفل فك مغاليقه وحكمه الثقافية.

إن النص المترجم إذا تم مسح تنوعات نسيجه اللغوي وهدم إيقاعه عمداً أو عجزاً فيفقد دليل القراءة بل يصبح معتماً لا تفك طلاسمه. فإن هدمت عباراته باستبدال الصور والصيغ والأمثال بمقابلات في لغة المصعب ربما افتقد غيرته وفقد معها فضول القراء الصغار.

وتتجلى إيجابيات القصص والنصوص المترجمة في تطعيم قدرات الطفل بصيغ وبنيات عقل وتفكير متطورة عما يجده في ثقافته المحلية التي تنعت بأنها ضعيفة ولا ترقى إلى الاكتفاء الذاتي بل تحتاج

إلى روافد عالمية مستقاة من نصوص اللغات الأجنبية. انبثقت في السنين الأخيرة أفكار في غاية الأهمية طرحت من قبل علماء النفس والأعصاب تقول: "إن القصص هي الشكل الذي ننظم من خلاله التجربة، وتلك القصص أو مخططاتها لا توجه ذاكرتنا فحسب بل توجه كذلك تجربتنا الآنية وما قد يحدث في المستقبل، هذا ما نفهمه من شذرات المعلومات وننظمه في شكل قصص"¹⁹ مخططاتها هي بمثابة "Logiciel" برمجيات".

ومن جهة أخرى يرجح أن يتأثر الطفل العربي بموضوعات الأدب المترجم وقيمه، هذا التأثير ذو وجهين: وجه إيجابي يكمن في اطلاع الطفل العربي على عادات الأمم الأخرى وتقاليدها وعلاقة أطفالها بمجتمعهم وأسرهم وأوطانهم، وهذا ما عزز لدى الطفل العربي مجموعة من القيم المعرفية والاجتماعية والوطنية والإنسانية، إضافة إلى المتع الفنية النابعة من الحكايات الشائقة والشخصيات المحببة التي تستجيب لتطلعات الطفل وحاجاته.

غير أنه أمام المد الكاسح للمواد المترجمة كبضاعة مجزية في الأسواق العربية، سرعان ما تسربت مواد فاسدة مخربة للعقل والوجدان ترتبت عنها نتائج وخيمة تمثل الوجه السلبي للقيم، وتعكس صورة للتلوث البيئي والخروج عن العادات والتقاليد والقيم. وهذا الوضع لا يصلح إلا برودة فعل قوية مصحوبة بتخطيط تعززه سياسة ثقافية تهدف إلى القضاء على هذا التلوث بواسطة إنتاج عربي وطني وقومي موجه للأطفال والمراهقين.

أما الوجه السلبي الثقافي الذي كرسه الترجمات أو حتى بعض التأليف تمثل في ضمور الحرص على اللغة العربية والإخلال بدقتها وانضباطها بالإضافة إلى انعدام التوازن بين ما هو علمي وأدبي، إلى جانب التركيز على العوالم العجيبة والغريبة، والشخصيات المستمدة من الحكايات الخرافية، وخصوصا السحرة والكائنات الغريبة وما يرتبط بذلك من خوارق كطيران البواخر وناطحات السحاب والحيوانات

الضخمة واختراق باطن الأرض ومسح الإنسان حيوانا أو مخلوقا آليا وانقلاب الظواهر المعتادة وما إلى ذلك مما يفتقر إلى السند العلمي وإن كان مفيدا لتنمية مخيلة الطفل. وليس هذا الوجه السلبي خاصا بالقصص التي ترجع إلى منتصف القرن العشرين، بل هو عام، يلاحظ في قصص²⁰ يتصدى فيها للترجمة مترجمون ليس لهم نصيب وافر من اللغة العربية بل هم دون مستوى لغة الأصل أو المصدر بل لا يدركون أدنى عقبات الترجمة وما ينجم عنها من عوارض تستحق المساءلة. هذه الأخطاء والفجوات كرسست الضعف في تكوين الأطفال وخلقت فجوة كبيرة بينهم وبين الواقع المعاش.

الترجمة وبناء هوية الطفل:

عندما نتوجه إلى الطفل بترجمة قصة أو حكاية لا ينبغي أن ننظر إلى الترجمة المكرسة على أنها فعل لغوي فحسب بل هي فوق هذا وذلك غالبا ما تكون مسكونة بعناصر أجنبية. فهي أيضا عملية ثقافية-اجتماعية ونتاج البيئة والظروف المحيطة بالمترجم كالتأثيرات السياسية والإيديولوجية والعقائدية والميول السيكلوجية.²¹

ونظرا للخطورة التي تكتسبها الترجمة في حياة الطفل والأمة علينا أن ننتدب لها مناهج معاصرة قادرة على معالجة الظاهرة التي شرعت تتعقد في زمن العولمة حيث الترجمة هي لغة أوروبا أو الإنسانية المشبوكة في الشبكة العنكبوتية. ومن بين المناهج التي تصلح في هذا المضمار سوسولوجيا الإنتاج الثقافي كما طورها عالم الاجتماع الفرنسي "بيير بورديو" أو حتى سوسولوجيا التلقي الثقافي وذلك لإتمام الدورة الترجمية التي تنتهي بالتلقي المنتج الذي يصدر عن المتلقي الصغير-الطفل-. ويأتي اختيار مثل هذه المناهج بسبب تركيزها على الحضور الاجتماعي والثقافي الذي يكتنف نص الترجمة ويغمره بكائنات ومواد ثقافية وعقائدية وسلوكية نخشى من تأثيرها على هوية أطفالنا وقد تصنع منه رجلا معاديا بل ومنتقضا لهويته. ينطوي فعل الترجمة على مفارقة أساسية تشكل العامل الأساسي الذي يجعل من الترجمة فعلا اجتماعيا-ثقافيا بامتياز أكثر من كونها مجرد فعل لغوي.

الترجمة الموجهة إلى الأطفال والمراهقين أو حتى الكبار لا ينبغي لنا أن نخترلها في مجرد النقل اللساني والذي من شأنه تسطيح بل انقاص فهمنا للترجمة التي نريد منها أن تكون أداة قوة وتعزيز لـ الأنا. نحفظ لها كيائها عندما نهتم بمهادها وسندها الثقافي وهو ثوب أساسي لا نستطيع أن نتخلص منه بل تجره غصبا عنها أرادت ذلك أم لم ترده. الترجمة تتطلع دائما إلى مترجم يكسوها بثوبها القديم أو بالثوب الجديد، لكنها لا تقبل الظهور عارية. والمترجم عندما يرغب في التعريف بالآخر يلبس الترجمة ثوبا ملائما معتادا لا تنفر منه الأنا بل تقترب منه. فهو يسعى بكل مهارة إلى جعل الآخر مفهوما ومألوفاً للأنا، وهو ما لا يتم إلا بنزع الغرابة عن هذا الآخر، وتجريده من بعض "أخرياته-غيرياته" وخصوصياته التي تحول بينه وبين الاندماج في الآخر.

تنطوي هذه المفارقة على توتر بين فاعلين (الأنا والآخر) أو فعلين، الترجمة بالميل إلى (الأنا) أو بالميل إلى (الآخر) وهنا أتوسل بمصطلحي "بول ريكور" الذي سبق أن وظفها في آليات التأويل - وهما المسافة Distanciation والملائمة Appropriation الأول يسعى من خلاله المترجم إلى صيانة المسافة بين (الأنا والآخر)، والثاني يتوسل به المترجم لردم الهوة بين الطرفين. الترجمة إذا هي في واقع الأمر عملية تفاوض بين هذين الفعلين، يسعى المترجم من خلالها إلى إحراز هدفين: الاحتراف بالاختلاف (وهو ما يمنح فعل الترجمة شرعيته) وإنجاز الإلتلاف (وهو ما يمنح نتاج الترجمة مقبوليته أو بالأحرى مقرؤيته في الثقافة المنقول إليها). وفي سياق المنهج الثقافي لا يختفي التقابل كليا بين اللفظ والمعنى، ولكنه يميل إلى التمرکز حول مسألة اللغة: أهل المصدر من جهة وأهل الهدف من جهة أخرى. فعلى المترجم أن يتوسل بإحدى الاستراتيجيات أو يعتمد على عبقرية المفاوضة بين الطرفين.²²

يفضي بنا التعليل والتمثيل السابق الذكر إلى مراجعة المقابلة الثنائية بين الطرفين فلا ينبغي لنا أن نختصر الترجمة في أشكال من المواجهة والمفاوضة (المسافة، الملائمة، التقريب، التغريب، الاختلاف، الإلتلاف) بين مترجم ونص أصلي من ثقافة أجنبية، بينما

هناك أطراف عديدة وفاعلة تشارك في عمليات إنتاج وتلقي الترجمة. وكل عنصر من هذه العناصر يساهم في تشكيل نسق وسياق الترجمة ويمنحها سماتها ومعاييرها ومسارها ومصيرها داخل الثقافة المنقول إليها.

من بين الأطراف المشاركة في الترجمة نذكر مؤسسة النشر، وسياسة النشر المعتمدة، وطريقة تقديم الترجمة، بما في ذلك الرسوم والصور وعتبات النص التي تشمل الغلاف الأمامي والخلفي والمقدمات والحواشي والنص السابق واللاحق والموازي. أضف إلى ذلك علاقة هذه الترجمة بغيرها من الترجمات المتاحة في سوق الترجمة، وعلاقتها بمعايير الترجمة المقبولة في الثقافة المترجم إليها، بما في ذلك المساحة المتاحة لتقبل الاختلاف، لا سيما فيما يتعلق بما يمكن أن تراه الثقافة المترجم إليها على أنه من قبيل المحرمات.

وظيفة الحضور الثقافي داخل نص الترجمة:

قلما يكون نص الترجمة خلوا من الحضور الثقافي الذي يحتاج إلى تفاوض بين الطرفين لما ينجم عنه من خسارة أو ربح بين الطرفين. إن المترجم بوصفه جمرkia بين حدين لغويين وثقافيين يراقب السلع فيمنع الرديئة والخطيرة والفاصلة ويتخير النافع والمفيد والأخلاقي والتربوي والإنساني فيسمح له بالمرور عبر اللغة التي هي بمثابة العربة الناجعة التي تشحن بمواد ثقافية مختلفة لا تمثل خطرا على من يقتنيها من النشأة واليافعين.

تعرف الترجمة على أساس أنها: "تواصل من خلال رسائل مترجمة في إطار نظام ثقافي-لغوي محدد، بما يترتب عن ذلك من نتائج تستدعي تفكيك الرسالة الأصلية وتحديد العناصر الثابتة ثم نقلها عبر الحدود الثقافية اللغوية وإعادة تشكيل الرسالة في اللغة المترجم إليها".²³ وهنا المترجم يرصد ويتتبع المواد الأدبية الأجنبية (شخصيات، فضاءات، أفعال، عواطف، أفكار، قيم، أجناس، صور، أساليب، قوالب،

أساطير قديمة وحديثة، معتقدات، عقائد، أمزجة) منها ما يعمل المترجم على تثبيته أو محوه أو تحويله أو استبداله أو اختصاره أو تقليصه...

يقول هوراس في كتابه *فن الشعر*: "لا يجمل بك أن تحاول نقل الأصل كلمة بكلمة مثل عبيد الترجمة"²⁴ فالترجمة كلمة بكلمة تكون محالة، لأنه لا توجد لغتان تتطابقان في بنائهما التركيبي للجمل، ولا في الصيغ الصرفية، ولا في الأنماط النحوية، باختصار ليس هناك لغتان تتطابقان في تصميمهما اللغوي الجوهري. فضلا عن هذا تختلف اللغات باختلاف البيئات التي نشأت فيها. هذا الوجود اللغوي-الثقافي المزدوج، أو المخطط الجنسي-اللغوي *ethnolinguistique* للاتصال، كما يسميه "أوجان ألبير نايد" Eugene A Nida يجعل "من المحال كليا أن نتعامل مع أية لغة بوصفها علامة لغوية، دون أن نقر على الفور علاقتها الجوهرية بالسياق الثقافي بوصفها كلا".²⁵

ومشكلة ترجمة الشعر، بصفة خاصة، أكثر حدة حيث تكون العلاقات اللغوية في أكثر أبنيتها حساسية وتعقيدا وتركيزا، فتغدو جسد القصيدة. "وتغدو المشكلة مبدءا بنائيا للنص في ... فترجمة الشعر محالة بحكم تعريفه، وليس هناك شئ ممكن سوى التبادل الخلاق".²⁶ المترجم الممتاز وهو يترجم للأطفال يمكن أن يضيف للغة الأم، ذلك أنه يدفع طواع الإدراك لمواطنيه إلى أبعد مما هي عليه، وذلك عندما يوظف اللغة في وظائف جديدة، ويكشف عن الطرائق التي استخدمت في أماكن أخرى وثقافات أخرى لتوصيل حالا بأعينها من حالات العقل، أو توصيل حدوس مباغته ومشاعر غير مألوفة للكبار والصغار.²⁷

النصوص المترجمة أو المعربة تتميز بوضع خاص ضمن النسق الأدبي العربي، تأسست من عمليات نقل وترجمة وتحويل لنصوص أصلية غير عربية. إنها نص ثان يفترض نصا أصليا أول، لكنها كذلك نصوص مستقلة بشكلها وصياغتها في اللغة المنقول إليها، وهذا هو المعنى الذي نقصده بمصطلح "تعريب" المتعدد الدلالات والاستعمالات في اللسان العربي. في هذا السياق نعني بمصطلح

"تعريب" في آن واحد عمليات الترجمة والنقل والتحويل لنصوص من لغاتها الأصلية إلى اللغة العربية، وأيضا وبالأساس البنيات النصية والخطابية والشكلية والأجناسية التي تم بها إدماج النص المترجم في النسق الأدبي العربي، والتشكيل النصي الذي توصلت به تلك النصوص للتداول في الحقل الأدبي العربي. إن مصطلح "تعريب" يعني الترجمة كما يعني كذلك منح شكل عربي لنص غير عربي.

إن كل نسق أدبي في لغة ذات تاريخ وثقافة وحضارة يتضمن بدرجات متفاوتة في الحجم والأهمية نصوصا أدبية مترجمة تندرج في النسق الأدبي المنقول إليه، وقد يحصل أن يصير لها وضع مركزي ومؤثر في تاريخ ذلك الأدب كما وقع لألف ليلة وليلة التي ترجمت أول مرة إلى الفرنسية من قبل "أنطوان جالان". إن الأدب المترجم نسق فرعي في النسق الأدبي، وقد يحدث في فترات من التاريخ أن يحتل مركز النسق الأدبي بأكمله ويكون العنصر المهيمن فيه.

الأدب المترجم ليس أدبا أجنبيا وليس كذاك تأليفا محضا وإبداعا أولا. إن قصص وخرافات "سندريلا Cendrillon"، و"أليس Alice في بلاد العجائب" و"البؤساء" و"هاري بوتر Harry Potter" و"الحساء والوحش" ... المترجمة إلى العربية مثلا، ليست نصا أدبيا عربيا أصليا لكنها في الآن ذاته ليست نصا فرنسيا أو إنجليزيا...، إنها أدب مترجم، والمترجم ينقل إلى اللغة العربية نصا غير عربي بل هجين أو نص بيني، لكنه يصوغه عربيا وفق مقاييس النسقين اللغوي والأدبي العربيين، أو بالأحرى يحاول إدراجه في النسق الأدبي العربي العام إما بالخضوع لهذا النسق أو التمرد عليه أو الالتفاف حوله ومراوغته. وفي هذا السياق يرى بعض المترجمين "أن كل تدخل لأحد تراكيب لغة الانطلاق يعتبر رعونة، لا بل عدم إتقان للغة الوصول"²⁸.

وما يسترعي الانتباه، في حدود صناعة الترجمة الأدبية سواء للصغار أو الكبار، هو الاختلاف البعيد الأثر بين سيكولوجية إنتاج النص الأدبي الأصل المعد للترجمة، وسيكولوجية التلقي والترجمة. فإذا كان

الكاتب أو الشاعر حرا في نشاطه الإبداعي فإن المترجم أسير ولا يبدع أو يعيد الإبداع إلا في ضيق سيكولوجي تحت رقابة النص يفهمه ويستوعبه ويتحسس تفاصيله و"المصدر الذي يجب أن ومن يؤوله ويحافظ على أصالته وثقافته التي لا تقبل التشويه"²⁹. ومن أجل هذا عليه أن يلجأ إلى تأسيس حوار بينه وبين النص المصدر وصاحبه ومتلقيه الافتراضي كي يتجلى قصد كل عنصر قصد المصدر وقصد الهدف وقصد المتلقي. وهنا المتلقي الصغير يواجه فائض القيمة والأثر المتبقي للترجمة التي تطلق طاقات واحتمالات للمعنى وثيقة الصلة باللغتين والثقافتين اللتين يترجم إليهما النص.

مسألة الاختلاف والابتعاد في الترجمة مسلمة بل حتمية. في واقع الأمر المترجم ينتج نصا مفارقا ومختلفا عن النص الأصلي سواء مارس الخيانة أو الأمانة على النص. ما يحدث في فعل الترجمة أن المترجم يكتب بشفرات لغوية مختلفة أو مخالفة للشفرات اللغوية للنص المصدر. فهو يساعد النص الأجنبي أو المصدر على الاندماج ليعيش حياة جديدة. فعندما يترجم إلى اللغة العربية على سبيل المثال فهو يكتب بلغة ثقافة وفكر معينين. والمترجم وهو يستخدم ألفاظ وكلمات ودوال وتراكيب ومراجع ومستويات لغوية مختلفة، فهو بالضرورة يخون ويبتعد عن النص المصدر أو الأصل، لأن هذا النص المصدر هو كذلك وليد ثقافة بعينها.³⁰

عندما يقارب المترجم النص الأجنبي عادة يذنب شخصيته ويتلبس بشخصية من يترجم عنه ليتقن عمله. وفي هذا السلوك اتحاد بشخصية الآخر وتطويع لغة الأم كي تقترب من صيغ وأبنية ودلالات واستعارات اللغة الأجنبية³¹.

فمن أجل الوصول إلى ترجمة موفقة مكافئة يتأرجح المترجم بين الانقياد والانعتاق من سيكولوجية المبدع أو المبدع له. هل هو زجاج شفاف أو ملون؟ لمن الهيمنة، لنص المنبع أم لنص الهدف؟ فإذا ما سوينا بينهما تطرح طبيعة الوسيط اللغوي بينهما ويحتدم النقاش حول

الترجمة أهي فن (Levy Savory) أم علم (Catford, Nida) أم تقنية أم هي شيء مستحيل نظريا لكن تبرره الممارسة.³² من هنا ليس غريبا أن يضطر المترجم إلى التوسل بكل آلية من الخيانة الذكية والتعويض إلى التغيير بل بذهب حتى إلى ما وراء النص من أجل أن ينهض بتفسيره وترجمته. فهو "كالعائن في البحر يحتمل المشقة العظيمة ويخاطر بالروح ثم يخرج الجواهر الثمينة الراسية في القاع".³³

إن أية دراسة جادة لظاهرة الترجمة لا يمكن أن تتجاهل هذا المجال الحيوي.³⁴ الترجمة ليست عملا محايدا، بل هي انتماء وتموقع. ومن ثم يجوز لنا أن نتساءل عن خندق المترجم وهل يتموقع بين الثقافات أم داخل الثقافات وهل يستطيع أن يقف مسافة عادلة بين النصين أم هو دوما مصاب بالميل.³⁵ "وفي هذا السياق تعد الترجمة الحرفية إبقاء على الآخر متميزا متخدقا داخل خصوصياته مما يجعل المترجم حارسا على الحدود بين الكيانات الثقافية والعرقية".³⁶

خلاصة:

عمل المترجم بوصفه حصيلة -أنا وآخر- ليس نهائيا ولا محدودا، يحتاج دوما إلى المراجعة والإعادة والتحسين. على الرغم من كونها لعبة وممتعة، فالترجمة للأطفال، سواء كانت حكاية أو رواية أو رسم كرتوني أو إشهار أو شعر محترم للأصل والجمهور المتلقي الذي يستأهل الأمتع والأجود، هي أبعد من أن تكون مجرد لعبة أطفال بل هي مسألة جادة تتطلب جهدا مضنيا ومضاعفا لا ينهض بها إلا أصحاب الاختصاص بل المؤسسات المختصة.

إن العمل الترجمي، الذي يستهدف الأطفال واليافعين، يثير إشكاليات وأسئلة أعقد من الترجمة للكبار في حد ذاتها. إن الترجمة للأطفال عمل شاق يشارك في بناء أدب أو آداب مستقلة لها خصوصياتها الواضحة والمميزة في معظم أحولها ومظاهرها، الترجمة في مرورها من لغة الانطلاق إلى لغة الهدف يعترض سبيلها إشكال ثلاثي الأبعاد: أولا الخيانة السردية وتتمثل في الكيفية التي توظف بها القصة أو الحكاية

بدءاً من درجة السفر وانتهاء بالأدبية الفائقة. ثانياً الخيانة الاجتماعية وهي تتلخص في الكيفية التي يوظف بها المترجم الشفرات والمرجعيات. ثالثاً الخيانة اللسانية وتعري الطرق والأساليب التي تبين كيف تنعكس الإشكاليات الثقافية في شعرية الترجمة.

إن ترجمة أي نص للأطفال لا تكون نهائية بل محكوماً عليها بانتهاء الصلاحية وأن تستبدل بغيرها لكونها مصبوغة بعدم الكمال وعدم الدوام مقارنة بنصها الأصلي الثابت الصفات والموازين التركيبية والصرفية غير القابلة للتصحيح. إن نص الانطلاق الأجنبي لا يعد نهائياً بشكل مطلق طالما أنه يعتمد على الترجمة لتأكيد بقائه. ففي النص المترجم لا تختفي الترجمة ولا يختفي المترجم ولا يغيب في عملية الترجمة.³⁷

هوامش:

1- Voir : La belle au bois dormant, الجميلة الغافية, La belle et la bête, صلاح Cendrillon, Saladin et la lampe merveilleuse, القبة الحمراء, Le petit chaperon rouge, الدين والمصباح السحرية, الخنازير Les trois petits cochons, سندباد البحر Sindbad le marin, ملكة الثلوج Reine des neiges, الصغيرة الثلاث Ali Baba et les quarante voleurs, القط ذو الجزمة Le chat botté, علي بابا والأربعين حرامي, الجنيات Baba Yaga, البيرقات المذهبة Grisélidis, Peau d'âne, جلد حمار

2- سيسيليا، ميراييل، مشكلات الأدب الطفلي، ترجمة منها عنونق، دراسات نقدية عالمية، دمشق، 1997، ص33.

3- سوزان إنجيل، القصص التي يحكيها الأطفال- محاولة لفهم السرد عند الطفل- ترجمة إيزابيل كمال، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للترجمة، القاهرة، 2004.

4- Michel De Coster, L'acculturation, diogene, Revue, n°73, 1971, pp15-28 et suite.

5- يقول الأستاذ يعقوب الشاروني، كاتب الأطفال (مصر): كتاب الطفل لا بد أن يتدرج مع قدرة الطفل على الاستيعاب، وأن يراعي المرحلة السنوية التي يخاطبها؛ فرسوم الطفل الصغير يُراعى فيها الألوان الأساسية الجذابة (أزرق-أصفر-أحمر)، ويقل فيها عدد الأشخاص، مع إلغاء الخلفيات والاعتماد على ما نسميه الصورة المقربة؛ فالطفل الصغير يرتبك عندما تكثر الخلفيات والشخصيات، كذلك لا بد أن تكون الجمل قصيرة، وعدد المفردات قليلا، مع مراعاة التبسيط في الموضوع، وكلما تقدم العمر قلّ دور الرسوم وزاد دور النص المكتوب.

6- التثاقف (التكيف الثقافي)، التثاقف هو العملية التي يستطيع الفرد أو الجماعة التفاعل عن طريقها اكتساب الصفات الحضارية لجماعة أخرى من خلال الاتصال أو التفاعل بينهما. غير أن التثاقف بالنسبة للفرد هو عملية تعلم اجتماعي أشبه بعملية التنشئة الاجتماعية التي تؤدي فيها اللغة دورا جوهريا. أما بالنسبة للمجتمع فالتثاقف هو عملية انتشار القيم والمقاييس والأحكام الاجتماعية إلى المجتمعات الأخرى مع تعرضها لعملية التبدل التي تجعلها منسجمة مع ظروف وأحوال المجتمعات التي دخلت إليها. غير أن هذه المقاييس والقيم والأحكام التي دخلت إلى هذه المجتمعات غالبا ما تسبب لها ظاهرة الصراع الحضاري أي الصراع بين القيم الأصيلة والقيم الدخيلة.

7- Voir : Baker, Mona, Narratives in and of translation, Skase journal of translation and interpretation, 1(1) :4-13, online : www.skase.sk.

8- Toury, Gideon, In search of a theory of translation, Tel Aviv, Porter Institute for poetics and semiotics, 1980.

9- Voir, META, Traduction pour les enfants, num. spécial dirigé par Riitta Oittinen, 48 :1-2, mai 2003.

10- ينظر عصام نور، العولمة وأثرها على المجتمع الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، كلية الآداب جامعة الزقازيق، 2002، ص24-30.

11- ممدوح محمد منصور، العولمة، دراسة في المفهوم والظاهرة والأبعاد الجامعة الجديدة للنشر الإسكندرية، مصر، 2003، ص22-25.

12- Constantinescu, Muguras, 2008, Lire et Traduire la littérature de jeunesse, Suceava, Editura Univertatii, p243.

13- Op.cit, p111.

14- Ibidem, pp206-207.

15- Ibidem, pp206-207.

16- على سبيل الإطلاع: صدرت بالجزائر مجموعة من الصحف من جرائد ومجلات متخصصة في مجال أدب قصص الأطفال. ومن أهم المجلات المعروفة في البلد نذكر: مجلة "مقيدش" التي أصدرتها الشرطة الوطنية للنشر والتوزيع عام 1969م. كما خصصت بعض الصحف الجزائرية ملحقاتها لأدب الأطفال كجريدة "الشعب" اليومية، وجريدة "المجاهد" الأسبوعية، ومجلة "ألوان" الأسبوعية. وتلت هذه الصحف الستينية مطبوعات أخرى في سنوات السبعين والثمانين كجريدة "قنيفة" سنة 1972م، ومجلة "ابتسم" سنة 1977م، و"جريدتي" سنة 1981م، ومجلة "رياض" سنة 1986م إلى جانب مجلات طفلية أخرى كنونو والشاطر/ ينظر جميل حمداوي، أدب الأطفال في الجزائر.

17- يقول محمد عابد الجابري في مقال له تحت عنوان: "العولمة والهوية الثقافية" في مجلة فكر ونقد العدد السادس من سنة 1998، معرفا الثقافة "بأنها ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات والتطلعات التي تحتفظ لجماعة بشرية بهويتها الحضارية، في إطار ما تعرفه من تطور بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتوصل والأخذ والعطاء، وبعبارة أخرى إن الثقافة هي المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان ومهامه وقدراته وحدوده وما ينبغي أن يعمل وما لا ينبغي أن يعمل".

18- أنطوان برمان، La traduction et la lettre, ou l'auberge lointain، ترجمة عز الدين الخطابي، بعنوان الترجمة والحرف أو مقام البعد، ص44.

19- حسن شحاتة، أدب الطفل العربي، الكتاب الحائز على جائزة الدولة التشجيعية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1994، ص19.

20- ينظر بعض الأعمال التي ترجمت إلى العربية مثلا:

Story Hansel and gretel, story Rabunzel, Les trois petits cochons, Vilain petit canard, Cendrillon, La barbe bleu, La belle et la bête بالإضافة إلى القصص المصورة والكرتونية المصحوبة بالسرد الشفوي المترجم إلى اللغة الهدف العربية مثل. Batman, Spiderman, Grand laser.

- 21- Voir : Shavit, Zohar, Poetics of children's literature, Athens, Georgis, 1986.
- 22- Voir : Jean René Ladmiral, Sourciers et ciblistes, Revue d'esthétique, N°12, Toulouse, Privat, 1986, p3.
- 23- فصول: مجلة النقد الأدبي، لورانس فينوتي، الترجمة جماعات التلقي اليوتوبيا، ترجمة نجوى إبراهيم، الهيئة المصرية، القاهرة، ع2008، 74، ص66.
- 24- ينظر كتاب Arts poetica ترجمة لويس عوض تحت عنوان "الشعر القاهرة" 1947.
- 25- Eugene Albert Nida (Principles of translation as exemple by Bible Translating), in on Translation, Ed, Reuben A Brewer New-York, 1966, p14.
- 26- Roman Jakobson, On linguistig aspects of translation, Brewer, New-York, p238.
- 27- Henry Gifford, Comparative literature, London, 1969, pp54-55.
- 28- محمد أحمد طجو، ميخائيل أوستينوف: نظريات الترجمة، الأربعاء 25 يونيو 2008.
- 29- مجلة الواحدة، الأساليب والمشاكل والحلول، نزار الزين، الرباط، المجلس القومي للثقافة، ع33-34 يوليو 1987.
- 30- Marie-Christine Hellot, La tradaptation : Quand traduire, c'est adapter Shakespeare, jeu : revue de théâtre, n°133, 2009, pp78-82.
- 31- Joëlle Redouane, op.cit, pp61-62.
- 32- Jean Delisle, L'analyse du discours comme méthode de traduction Ottawa, Ed de l'Université, 1980, p96.
- 33- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص12.
- 34- ينظر مجلة فصول ع74، ص40.
- 35- جمال حضري، الترجمة والمثاقفة، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، ع2006، 5، ص48-52.

36- Antony Pym, Pour une éthique du traducteur, Puf, 1997, pp16.

37- Venuti, Lawrence, The Translator's invisibility : A York, Routledge, 1995, p1.